اين خطب مؤتمرات السلام التي كانت تنيفا يوم تزول فيه الحروب وتنقطع الخصومات ويفصل في كل خلاف بين الامم بالتحكيم الى ان يستولي الاخاء العام على نوع الانسان

اين مواعظ الكنائس والمعابد التي كانت تعلّم الانسان ان يحب قريبهُ كنفسهِ وان الناس كلهم اخوة من دم واحد ويجب ان يعامل كل احد غيرهُ كما يريد غيرهُ ان يعاملهُ

اين تعاليم الحكماء والفلاسفة ومشترعي الاديان . ماذا اصاب نوع الانسان في هذا العام والذي قبلهُ . ماذا فعلت المانيا بعقول الناس . أكان كل الفضلاء في العصر الماضي والعصور الغابرة منافقين مخاتلين يبسطون طلاءً كاذباً على نفوس وحشية ويلبسون ثياب الحملان و بواطنهم ذئاب خاطفة . معاذ الله . ولكن وباء معدياً تولّد في المانيا وجنوناً مطبقاً نشأ فيها وترعرع وانتشر منها الى كل اقطار المسكونة كما ينتشر الطاعون اوكما تنتشر بعض انواع الجنون . ولا بدَّ من ان يفيق الناس من سكرتهم و يروا ما فعلوا بعضهم ببعض فيجدوا انهم يتقاتلون على عرَض فانٍ وان غاية ما يصلون اليهِ ويبقى لهم اشبار من الارض يضطجعون فيها

الانسان ازاء المدنية[1]

ايها السادة

عندما وقفت هذا الموقف منذ خمس سنوات ما كنت اظن انني ساعود اليهِ اليوم ولكن الجمعية الكريمة رضيت عني على ما يظهر فلم تنسَ دعوتي الى حفلاتها التالية عاماً بعد عام ولم تبرح حتى اضطرتني الى الخضوع ايضاً هذه المرة فعدت اليها شاكياً منها شاكراً لها . بل كيف اشكو منها ولدهرٌ في الشوق اليها واليكم يا كرام طنطا بثثت اشهد عن كثب فلاحها واظهر اعجابي بثباتها ومع الاسف العظيم ان آمالي لم تتحقق تلك الآمال التي عقدتها في خطابي السابق ان تكون هذه الجمعية مدرسة للشرقي يتعلم فيها قيمة الاتحاد فينشيه بها . فقد مرَّت السنون كالحلم وليس لهذه الجمعية اخوات في القطر المصري تنشأ مثالها للاحسان فتجمع تحت لوائها من كل عقيدة ويمشي فيها الناس جنباً الى جنب على اختلاف المذاهب والاديان ولم ارَ حتى الساعة في غير طنطا من تجرأ ان يظهر في هذا المظهر كأنهُ كُتب على الشرقي ان يظل في انقسام الى آخر الايام

(١) خطبة القاها حضرة الدكتور خوري قبض في الحفلة السنوية لجمعية الاتحاد والاحسان السورية في طنطا في ٤ مايو سنة ١٩١٦

وما اخص بالرجال شكري واعجابي بعد ان رأيت في هذا الاجتماع من همة السيدات وانضمامهن الى هذا العمل المبرور ما يشد د الامل في النفس ويمهد للفكر سبيلاً الى الرقي والتعزية لانك يا سيدتي رفيق هذا الجاهد وكل خدمة منك في هذا الجهاد هي درع من العفاف تنسجهُ يدك الجميلة لاخلاق الرئيسة . وما احراك ان تكوني رسول التساهل والاتحاد والوئام انتِ التي اتهموها ظلماً من خلال العصور بكل تعصب وخصام . وما عساي ان اقول فيك من جديد لم يقلهُ من قبلي كاتب او خطيب حسبي يا سيدتي ان النور الذي اشرق في هذا النادي قد وصل الى قلبي شعاعٌ منهُ . وهذه الرؤس الجميلة الناطقة الافكار الضاحكة كالازهار قد تركت في رأس هذا العاجز نشوة سرور واطمئنان ، فالسلام عليكنَّ وعلى ما تحملنهُ من الاحسان ، هنا وفي كل مكان

وما اكثم عنكم العناء الذي لقيتهُ في اختيار موضوع اطرف به جمعكم هذا المساء فقد ترددت طويلاً بين السياسة والطب والشعر . اما السياسة فلم آنس من النفس ارتياحاً اليها ولم اظفر من الذهن بحومة عليها . واما الطب فلم يخلق للناس كما تعلمون واني ارأ بنفسي ان اكون ساقياً يدور عليكم بجرعة من المنومات في ساعة هي وايم الحق للهو والادب لا للنوم والتخليط . واما الشعر فقد مضى العهد به . ايام كان القلب شديد الخفوق والفكر محلقاً في سماء الخيال ولم يبقَ اليوم بعد ان همت جذوة الشباب وتبددت احلام الصبى الا ان يطرح الكاتب سلاحهُ ويطوي هزار الادب جناحهُ

حينئذٍ تمثل امام عيني المشهد الهائل الذي يقيم العالم المتمدن ويقعدهُ منذ عامين . اعظم حرب خاض غمارها اعظم البشر عدة وعديداً . فقلت في نفسي ماذا جرى لابن آدم فهذه الملايين التي تتفانى في زهرة ارتقاء العصور وهذه الآلات الفتاكة هي بنت التقدم والاختراع والسعادة بالعلم وهذا الرجل الذي يطالق النار على اخيهِ ويحمل فيهِ السيف وينفث حولهُ السم كان بالامس في مكتبهِ يدعو الناس الى الرحمة والحب او في معملهِ يسعى الى اختراع ما يخفف الالم ويزيل الشقاء ويطيل الحياة على الارض . فما هذا التناقض وكيف احتلَّ ذلك النظام ؟ الم يكن التقدم الا وهماً والرقيُّ الا حلماً وذلك البناء الشاهق الذي شيدهُ العقل البشري على مدى العصور الا بيتاً من العنكبوت . هل افلس العلم وضاعت آمال البشرية الزاهية هذه التأملات شغلتني حيناً عن موضوعي ثم ساقتني اليهِ من حيث لا ادري فقلت أحدثهم عن العلم ازاء التمدن عما عمل العلم وما سيعمل صفحة من تاريخ البشرية

امرٌ فيها بسرعة البرق على الاطوار التي تقلب فيها هذا الموجود والمظاهر التي تعددت عليه منذ اتيح له الوجود . فحقيقٌ ما اردت استنتاجه ان العلم لم يفلس قط وهذه الزوبعة العاصفة في العصر العشرين ستزول كما زال غيرها في سالف العصور . والانسانية لا تزال قائمة تقدمها دائم . وربحها في اضطراد . الى ان يقطع الانسان المسافة الباقية له على الارض . فيعود الى الظلمة التي خرج منها

لو أُعطيَ لنا ان نخرق حجب الزمان الغابر . ونُطلَّ على لجة الماضي العميق . لبدا لنا دبيب الانسانية في حال الطفولة وسمعنا صياحها في مهترك الجهل والشقاء . لا اذكركم الارض من يوم كانت كتلة من السديم المائر . او جذوة نار سائلة . الى قشرة باردة . تعمرها سيول الامطار . ولا الحياة من اضطراب الخلية الاولى في ظلمات البحار الى اسمى مظاهرها الحاضرة . بل تتبع الانسان منذ ظهر على الارض . عاري البدن عاري العقل خمسون الفاً من السنين على حساب البعض ومئة الف او مئتان على رأي البعض الآخر قضاها هذا المسكين في تلك الحالة الفطرية بين اشجار غريبة باسقة . وحيوانات ضخمة هائلة سلاحهُ الحجر . ومأواهُ الغابات والكهوف . ليل طويل مدلهم الظلام . عاوه من القفر والآلام . لم يُؤتَ فيه الاَّ القليل من الخبرة والقليل من الصناعة والقليل من النظام . ثم اخذ الموج البشري يتدفق على الارض متعاظماً عصراً بعد عصر هادماً بالصبر الطويل كل حاجز في طريقه حتى ضاقت الارض بالسلائل البشرية فمشى الانسان شمالاً ومشى جنوباً قاطعاً القفار المحرقة والثلوج الخالدة الى ان قامت الممالك فوق الممالك وامتزجت الامم بالامم فتحضر الانسان وطفت مراجل الحياة في الشعوب وتبدل وجه الارض بتأثير الايدي العاملة وانتشرت فوقها مظاهر العمران فقامت من كل جانب الابنية والهياكل والمدن والمعاقل . بينما كان الفاتحون الغزاة يعربدون على مسرح الاجتماع . سكارى بخمرة الفوز والاطماع . تاركين وراءهم شعاعاً من المجد وسيلاً من الدماء

هكذا درج الانسان من مهد الطفولة . وقد ارتقى شعوراً واكتسى بالتدريج عقلهُ خبرة وفؤادهُ نوراً . كان فقيراً فصار غنياً وجاهلاً فاصبح عالماً وضعيفاً فصار قوياً . ولو اردنا في هذه النظرة القصيرة التي القيناها على الماضي الطويل ان نعرف اين تجلت مظاهر تلك القوة وذلك العلم والغنى . لبدت لنا صفحات التاريخ كمشاهد الصور المتحركة فرت من امامنا الامم والاجيال تباعاً لتناوب حمل مصباح التمدين يسرجهُ كلٌّ بدَوْره . ثم يدخل في ظلمات الماضي ويبقى المصباح وهاجاً منيراً

هذه مصر في طليعة تلك الامم · مصر وطن الآلهة · مصر واهراماتها وتماثيلها وعمدها وازد هام الشعوب في ساحاتها · هياكل ضخمة · ٥ رائع ناسية · تقاليد راسخة · عقول غارقة في سبات عميق

وهذه صور وسيداه · مهد الفينيقيين تجار البر والبحر · طلاب المال والفخر · ثم اشور ومدنها الفخمة · وملوكها الطغاة · تحفهم الولائم · وتتخهم الكبرياء · في قصور مذهبة · تحميها الثيران ذات الاجنحة · ثم الهند مهد الاحلام · ومطار الخيال قاتلة الارادة والالم والشعور · ثم الصين وراء سورها المنيع · عاملة بالصبر والحكمة محترفة كل غريب · مسرعة في سيرها · مسرعة في نومها

في تلك الايام بادادة بلغ العلم في بعض فروعه درجة يكاد يحسده عليها العصر الحاضر · وهذه آثار المصريين في التحنيط والبناء شاهدة على ما كان عليه علم الكيمياء والهندسة لذلك العهد · حسبكم هرم الجيزة فانهُ حير عقول العلماء بما فيهِ من دقة الوضع واحكام البناء فان سطوحهُ متجهة الى جهة الخوافق الاربع بضبط لا مثيل لهُ · وقاعدتهُ الصخرية مشيدة بانقان يحملنا على التساؤل ما هي العدد التي استعملها مهندسو تلك العصور · وزوايا الانحناء في الجهات الاربع بالغة من الكمال في الصنعة ما يتعذر على مهندسي اليوم وعلمائهِ الوصول اليهِ

والى جانب هذا العلم الراقي كانت الحرب اتونًا دائم الضرم اذا خبت نارهُ من جانب شبَّت من جانب · وآثار مصر ونينوى وبابل تقص علينا اهوال تلك الغارات الدموية وفظائع ذلك الحكم المستبد الظالم · ولولا الهند لم يسمع العالم القديم كلمة رحمة ولم يسطع في ارجائهِ شعاع للمحبة · قيل ان بوذا خرج يومًا للنزهة فصادف في طريقهِ فقيرًا ومريضًا وميتًا ولم يكن قبلاً قد رأى مثل هذا المشهد المحزن فعاد ادراجهُ الى القصر وسأل اباه الملك ألم يكن في طاقتهِ منع الفقر والمرض والموت فاجابهُ ابوهُ انك تطلب مني المستحيل يا بنيَّ · وكان هذا الجواب كافيًا للامير ان يتبين بطلان تعاليم البراهمة · فاعتزل لساعتهِ العالم وانقطع للتأمل والبحث عن الحقيقة · ومن هذه العزلة خرجت تلك الديانة القاتلة لشهوات الانسان واحساسهِ · ومن هذه العزلة ارتفع صوت يقول بغرور الحياة · و بين مفاسد العصر القديم قام رجل يدعو الناس الى تجافي مضاجع السرور واللذة قائلاً الرغبة بالتأمل والتأمل بالنيبو بة والنيبو بة بالفناء حتى يصل الى الغاية القصوى من الخير وهي « النذفانا » اي العدم · رسم بوذا للعالم القديم طريق الخلاص كما رآها وقال لهُ : لا تسرَ في هذه الطريق

ان تمدّ للانسانية يد الاسعاد فترحم كل حيّ وتضرع عن كل مذنب وتنسى كل اهانة وتعامل بالحب والرأفة والجود اخوانك في هذا الوجود

هكذا كانت الايام تمثل ادوارها على ملعب الحياة . عند ما انبثق فجر المدنيّة اليونانية من ضفاف المتوسط فامتدت شعلة الفكر الى كل صوب وسطع نور الجمال في كل افق وتجلت الحرية على عرشها الكريم فشعر الانسان لاول مرة بما في الحياة من جمال . والوجود من عظمة وجلال

وجاءت رومة ملكة العالم . تمدنة البرابرة . فاقامت الابنية الواسعة وخطت الطرق التي لا تمحى رسومها . ووضعت ذلك النظام الاجتماعي العظيم وتلك الشرائع التي لا تزال تهتدي بنورها حكيمات العصر الحاضر . وجمعت تحت لوائها الامم أحلافاً متضافرة كأنها أسرة واحدة من ضفاف الاتلنتيك الى شواطئ الفرات ومن مجاهل الشمال الباردة الى صحارى افريقيا المحرقة وهكذا انتشر السلم الروماني مخيماً ببرواقه فوق شتى العالم القديم

الى هنا انتهى الشوط الاول من الرقي وكان الانسان تعب من فرط ما عمل فاتخذ لنفسه فترة سكون وقام . فلما استيقظ كان ذلك البناء الشامخ قد تداعى بعد ثلاثة قرون طواها في البذخ والبسط والفساد . فجاء البرابرة واكتسحوا رومة العظمى وبددوا شمل تلك الشعوب الزائغة في بحبوحة العز . ولكنهم لم يقووا على هدم شرائعها ومحو لغتها بل سرت فيهم روحها الى مدة فابتلع المغلوبُ الغالبَ وبقيت تلك الاحكام تدير دفة الرقيّ واخذ الانسان من غير ان يشعر ينتقل من حال الى حال قاطعاً بالتدريج الشوط الثاني وهو ما يسمونهُ بالعصور الوسطى . وكلكم يعلم ما كانت عليهِ تلك العصور

ثم اشرق فجر جديد للفكر البشري لم تقوَ المشانق على اخفاء نورهِ ولم تتمكن النار التي التهمت ضحاياهُ الكثيرة من حجب ضيائهِ بل كان صوت الحقيقة يعلو كل صوت من اقوام شلّها الالم . فطار العقل في فضاء الحرية والابداع وارتقت الانسانية بين الحكمة والجنون والعدل والشقاء والسياسة والطمع فامتدى الانسان الى دورة الارض ودورة الدم واستكشف ناموس التجاذب وعدّ النجوم وقاس الابعاد واستخدم البخار وكان كل خطوة منهُ فتحاً مبيناً . كأن العصر الثامن عشر قام قومة واحدة ليدفع الانسانية في طريق الارتقاء . وما زالت العلماء تبحث والفلاسفة تنقب والادباء تكتب والعالم كلهُ يتمخض حتى ولدت الثورة الفرنسوية ولم تكن فقط ثورة في السياسة بل في الافكار فجاء القرن التاسع عشر تاجاً على هامة القرون . واذا رجعنا اليوم قليلاً الى الوراء لا نكاد نصدق انهم آباء

هذا الجيل اولئك الذين كانوا من قرون ونصف قرن يستقرئون الانسان ويديقونهُ الذل ضروباً ، ويعذبون من خالفهم في العقيدة تعذيباً . ولا يرون في الجور والاعتساف والقتل امراً غريباً

ايها السادة هذه المسافة التي وصفتها لكم في بضعة اسطر حازها الانسان في بضعة آلاف من السنين . وهي مدة قصيرة بالنسبة الى الزمن الذي طواهُ سجل الفطرة . واما الخطوة الكبرى التي يحق لنا ان نسميها خطوة الجبابرة فقد كانت في الخمسين سنة الاخيرة . فقد فتح العلم فيها مغالق الارض والسماء فعرف الانسان عمر هذه الكرة والكائنات التي عاشت عليها وشهد مولد العوالم من السديم المائع الى النجم الساطع ورسم مكان الكواكب والافلاك التي تدور فيها وحلل نور الشمس وغيرها من ملايين السُرُج المستطيرة في الفضاء حتى تلك التي تحتاج اشعتها الى مئات من السنين في اللانهاية قبل ان تصل الى مرصد على الرغم من سرعتها الهائلة

وخضعت لهُ قوى الوجود فصرّفها كيف شاء من حرارة الى نور الى كهربائية . فحوّل الشلالات الى قوى تحمل الخصب والحياة الى الاراضي المقفرة وامتطى قبّة الفلك وخاض في احشاء البحار قاطعاً اوربا بثلاثة ايام والعالم بثلاثة اسابيع كانهُ من آلهة هوميروس تطوف السماء بثلاث خطوات

وجعل للاجسام الكثيفة شفوفاً تخرقهُ الابصار وحول الليل الى نهار واحيا الميت بالتمثيل صوتاً وحركةً ولباساً وفيض على عنان البرق فجعلهُ رسول افكاره يسيرهُ حيث شاء . واذاب الحجر الصلد بقوة يسأل المواء وجمّده . وبعد ان كانت الكيمياء سبيلاً الى غنى طمع لا يعرف ان يشبع غير الذهب وهي تضن به عليه قضّ اسرارها فعد ملايين العناصر الفردة التي تتألف منها نقطة الماء وحبّة الملح وقرّب بين الاجسام المتباعدة وقلّد الطبيعة وفاقها احياناً في اختراع الروائح وتصوير الالوان

ولم يلهِهِ ذلك عن النظر في شؤون نفسهِ الخاصة فقرأ آيات الدم الجاري والقلب الخفّاق والدماغ الآمر والعَصَل المنقبض والرئة التي تتنفس والمعدة التي تهضم . وتغلغل في اعماق المادة بما اخترعهُ من المناظير والمكبّرات فاشرف على تلك الكائنات المتناهية في الصغر التي تشهر عليهِ في الخفاء حرباً دائمة وادرك اي سلاح قلدتهُ الطبيعة للدفاع عن نفسهِ في صدر هذا العدو الجرار واذا حق لنطب اليوم ان يفتخر بما وصل اليهِ من الارتقاء فرجع الفخر الى الكيمياء التي شقت له الحجاب عن هذا العالم الجديد بما كشفتهُ من اسرار

الاختيار . واذا قلت الطب فلا اقصد به وسائل التشخيص والعلاج فقط بل الجراحة ايضاً . فقد كان الجرّاح فيما مضى لا يقوم على اجراء ادنى عملية تخوّفاً من عواقبها الوخيمة وافظعها التنفرينا والموت ولم يكن من فرق يذكر بين الزيّن والجراح وكثيراً ما قام الاول بعمل الثاني . اما اليوم فقد صار الجراح بفضل التطهير والتعقيم يفتح البطن والجمجمة والصدر ويطل على المخ والرئة والقلب ويستأصل العظم والرحم والاحشاء ولا يخطئ مشراطهُ الشفاء وعلى علم المكروب هذا موقوف امل الاطباء بدفع اذى الامراض كلها كما سأبينهُ لكم فيما يلي

قلت في بدء خطابي انني لا احب ان اسقيكم سموماً فلا تحسبوني ناسياً ما قلت . ولكني طبيب قبل كل شيء وشرف الصناعة لا يسمح لي ان امرّ على الديار ولا اسلّم . وان هي الاّ وقفة قصيرة اشهد فيها معكم حرباً عوانًا لا تقل هولاً عن الحرب الحاضرة الاّ انها خفية لا تراها العين ولا تسمع فيها الاذن لعلعة المدافع ودوي القنابل الشجرة وهذه الحرب ليست في الخنادق تحت الارض ولا بين المحلقات في الجو او الحراقات في البحر ولكنها في جسم الانسان

الجسم الانساني ميدان واسع يخترقهُ كثير من المجاري وكثير من الخيوط . اما المجاري فهي الاوعية من شرايين واوردة تنقل الى جميع نواحيهِ الغذاء والدواء بفضل الدم الجاري فيها . واما الخيوط فهي الاعصاب ممتدة كاسلاك الكهربائية تنقل الشعور الى المركز الدماغي الشوكي مقرّ القيادة العامة وترجع عنهُ بالاوامر الى سائر الجهات . ويحيط بهذا الميدان عدو عنيد شديد الخطر اسمهُ المكروب يحاول اخذهُ على غرّة حيناً عن طريق الجلد وحيناً عن طريق الاغشية بالغذاء تتناولهُ او الهواء تستنشقهُ

فاذا عرفتم ان كمية الدم الدائر في الجسم لا تربي على خمسة لترات وان دورتهُ تتم في بضع ثوان فيمر بالرئتين في اليوم الواحد عشرون الف لتر من الدم تبين لكم السرعة الهائلة التي يغزو بها المكروبُ الجسم اذا اتيح لهُ الدخول اليهِ . ولكن هذا السائل الاحمر يحتوي على كريات بيضاء وظيفتها الدفاع عن الجسم وهي في نسبتها الى الكريات الحمراء عدداً على حد قول الشاعر

تعيرنا انّا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليلُ

هذه الكريات مستقلة في عملها . اي ان الدم لا يستطيع حملها في تياره اذا هي أبت ذلك فتتشبّث بجدار الاوعية وتغير شكلها بما لها من خاصية التمدد فتصير متطاولة بعد

ان كانت مستديرة وتنفذ الى الخارج تسمى العدو الغازي ولا تقتصر مهمتها على صد العدو فهي تتثقف في ضربها كل جسم غريب . ومنها ما يسطو على خلايا الجسم التي يصيبها الهرم فتبتلعها وتنظف منها ذلك البناء

ولهذه الكريات مستودعات ومصانع تذخر فيها . منها العقد اللمفاوية والغدد والكبد وغيرها . فهذه المصانع هي اشبه شيء بالقلاع والحصون منتشرة في أكناف الجسم يرابط فيها جيش عظيم من الكريات ليدفع في صدر العدو المهاجم ويقطع عليه خط الرجعة . واهم هذه القلاع الكبد فهي من المناعة بمكان لا يستخف به ويحق لنا ان نسميها « فردون » الجسم . فكم زحف الميكروب بجيشه الجرار وضيق عليها نطاق الحصار فلم يفز منها بطائل وحاق به الدمار

فلنفرض الآن ان الميكروب جاز الحدود ودخل الجسم عن جرح في اليد مثلاً وشهرت الحرب بينهُ وبين الكريات والخلايا فكيف يكون الهجوم وكيف يكون الدفاع

يتأثر بادئ بدء عصب الجلد الحاس فينقل اثرهُ حالاً الى المركز الدماغي الشوكي وعنهُ يصدر الامر الى الشرايين بواسطة العصب ايضاً ان تتمدد وتتسع ليتكاثر الدم فيها وهذا ما يعلل لكم الالتهاب الموضعي واحمرار مكان الجرح . ثم تقترب الكريات البيضاء وتنفذ الى خارج الاوعية وتمد نحو الميكروب ما يشبه الايدي فتقبض عليهِ وتجذبهُ نحوها وتبتلعهُ وتسرع في هضمهِ حتى لا يبقى لهُ اثر مستعينةً على ذلك الهضم بمادة خاصة يفصل الدم

وعلى هذا الوجه تنحصر المعركة في نقطة معينة ويقضى الامر . وقد يكون الميكروب قويًّا فلا يُغلب على امره تماماً بل يلبث في حال الجمود الى ان يتوالد ويشتد فيعيد الكرة عند سنوح الفرصة ولكنَّ للكريات البيضاء فرقاً من الحرس تنتقل في خلال الانسجة وتزود اطراف الجسم ساهرةً على ما وكل اليها قائمة للعدو كل مرصد فاذا آنست منهُ ادنى غدر هجمت عليهِ وبطشت بهِ

وهذا الالتهاب الموضعي الذي ذكرتهُ لكم الناتج عن تمدد الشرايين وورود الدم بكثرة الى موضع الالم لا يحدث الاَّ اذا كان الميكروب في حال متوسطة من القوة وفي خلاف ذلك فاما ان يكون ضعيفاً تميتهُ الخلايا الثابتة بسهولة بدون حاجة الى معونة الكريات المتنقلة واما ان يكون قويًّا جدًّا فيفرز من السموم ما يمنع تمدد الشرايين فينتشر الداء في الجسم بدون حدوث التهاب موضعي . فالالتهاب الموضعي هو عمل نافع يحق لنا ان نفرح بهِ لانهُ حاجز دون انتشار الميكروب ولكنهُ قد يضرّ احياناً لان الجسم يعيي من الجيش على غير هدى اكثر مما يلزم فتضيق بهِ الارض على فسحتها ويجم عن ذلك خطر الازدحام اي الاختناق

كما يحدث في امراض الحلق اذ تتورم الحنجرة من عظيم الدفاع وشدة التهيج فيضيق بها التنفس

قلنا ان المكروب اذا كان قويًّا جدًّا لم يحدث التهابًا موضعيًّا لان الكريات البيضاء تعجز عن الدفاع فكلما حاولت الدنو منهُ ردَّها بافراز سم خاص كانهُ الغازات الخانقة فتنهزم من وجههِ ويخلو لهُ الجو للتقدم لكن اثقلاع التي ذكرتها لكم لم تسقط بعد ولم تسلم وعليهِ ان يخترقها ليسهل عليهِ احتلال الارض الجديدة التي افتتحها . ولنا برهان على قيام هذه الحصون بحق الدفاع فيما نراهُ من تورمها واحتقان الدم والسائل الليفاوي فيها فجرح اليد مثلاً يحدث ورمًا في العقد تحت الابط . وجرح الرجل يحدث مثل ذلك في العقد الاربية وقس عليهِ . فاذا رجحت كفة المكروب في هجومهِ وتم لهُ اختراق تلك الحصون العديدة اخذ سبيلهُ نحو الاوعية الكبرى حيث الدم في اعظم جيشانهِ فلا يطيب لهُ البقاء في هذا التيار الشديد الأدقائق معدودة ينساب من بعدها الى الشرايين الصغيرة المتشعبة في الاعضاء ويخندق فيها

وهناك تكون الرقعة الاخيرة الفاصلة بين تقدمُ المكروب بالاستعداد فيتوالد ويتكاثر تكاثرًا هائلاً ويعدّ ذخيرتهُ التي يتكل عليها في احراز النصر الاخير وهي سمهُ الذي يبرئل عمل الكريات ويفتك بها . ولا تقف الخلايا مكتوفة الايدي بل تستعد هي ايضًا مثل ذلك الاستعداد من التكاثر وافراز سم يُشَلّ بهِ المكروب . وفي هذه الاثناء تكون الخلايا القريبة من خط القتال قد احتملت الهجمة الاولى وبادت سموم المكروب فاخذت هذه السموم تسري في الدم لتضعفهُ الاَّ انها توقظ الخلايا من سباتها وتنبّه قواها الحيوية الى افراز سم جديد يجتمع بهِ الجسم في زمن قصير سلاحان لا مثيل لها : سم ضد المكروب وسم ضد سموم المكروب . وعلى هذين السلاحين يتوقف سير المعركة اي المرض ونتيجتها من انتصار فيهِ الشفاء او انكسار من ورائهِ الموت ولا يتمكن الجسم من صنع هذه الذخيرة من السلاح بالكمية الوافية والسرعة اللازمة الاَّ اذا كان نشيطًا مستريحًا وهذا ما يبين لكم منافع الحياة المعتدلة التي لا تنفق القوى فيها سدًى ووجوب الغذاء الكافي الملائم والعلاج الموافق عند الحاجة الى العلاج

ستأتي البقية